

الشعر رافد من روافد المقاومة الدينية والاجتماعية للاستعمار الفرنسي في منطقة القبائل خلال القرن 19

Poetry was a tributary of the religious and social resistance to French colonialism in the Kabylie region during the 19th century

د. يسمينة سعودي، أستاذة محاضرة أ،

تاريخ حديث ومعاصر، جامعة الجزائر 2.

الايميل المهني:

yasmina.saoudi@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2021- 04 - 30	تاريخ المراجعة: 2021- 06 - 04	تاريخ القبول: 2021- 06 - 05
------------------------------	-------------------------------	-----------------------------

الملخص:

تندرج هذه المساهمة في الدراسات الخاصة بدور الموروث اللامادي في مقاومة الاستعمار الفرنسي بمنطقة القبائل خلال القرن 19، إذ حاولت تسليط الضوء على ردة الفعل الجزائري عامة والقبائلي خاصة في مقاومته الثقافية وصموده أمام الترسانة العسكرية الاستعمارية، وأساليبها المتعددة لاجتثاث معالم تواجد هذا السكان من لغة ودين، وحتى عاداته وتقاليده من خلال الشعر الناطق باللغة الأمازيغية.

يعد الشعر بذلك رافد من روافد الكتابة التاريخية، ومصدرا مهما لها لتسليط الضوء على الأوضاع الاجتماعية والثقافية ومعاناة المجتمع تحت ويلات الاستعمار التي لا تذكرها تقاريرهم، فكان الشعر حقا المرآة العاكسة لتلك المعاناة، والمقاوم الى جانب البندقية، وعمل الشعراء على والتنبيه بدسائس المستعمر وسياسته الاستتصالية لكل ما يرمز بثقافته.

الكلمات المفتاحية: الشعر، منطقة القبائل، المقاومة الثقافية، المقاومة الاجتماعية.

The abstract:

This contribution is part of the studies on the role of the immaterial heritage in resisting the French colonialism in the Kabylie region during the 19th century, as it tried to shed light on the Algerian reaction in general and Kabylie in particular in its cultural resistance and its steadfastness in front of the colonial military arsenal, and its multiple methods of eradicating the features of this population's presence in terms of language and religion, And even his customs and traditions through Amazigh-speaking poetry.

Poetry is thus a tributary of historical writing, and an important source for it to shed light on the social and cultural conditions and the suffering of society under the ravages of colonialism that their reports do not mention. What symbolizes his culture?

Key words: Poetry, Kabylie, cultural resistance, social resistance.

المؤلف المرسل: يسمينة سعودي، الإيميل: yasmina.saoudi@univ-alger2.dz

مقدمة

إن هذه المساهمة تندرج في الدراسات الخاصة بتاريخ الثقافة الجزائرية تجاه السياسة الفرنسية لها، إذ حاولت تسليط الضوء على ردة الفعل الجزائري في مقاومته الثقافية من خلال الشعر، الذي يتجلى لنا رافد من روافد الكتابة التاريخية.

تبقى الدراسات الخاصة بتاريخ المقاومة الثقافية لسياسة الاستعمار في أمس الحاجة إلى البحث، بالنظر إلى أنّ أرضية هذه المواضيع عديدة ولا تزال خصبة، وتحتاج إلى تنقيب وبحث من جهة، ومثيرة للخلاف والجدل من جهة أخرى، وذلك لاعتبارات تاريخية فرضتها السياسة الفرنسية الاستثنائية لكل ما ينبع من حقيقة تواجد هذه الأمة عبر العصور.

فساهمت بهذه الدراسة للأهمية التي نوليها للموروث الشعبي والتي تسلط الضوء على نوع آخر من المصادر التاريخية ألا وهو "الشعر"، والذي وقف إلى جانب البندقية في وجه المستعمر يصدح بحقه من خلال أفواه الرّواة.

يُعتبر الشعر كما يقول آلبير قيمي "موجود دائماً"، (غيلاني، 2016: 36) ومعنى ذلك، أنّ الشعر الشعبي بالجزائر عامة ومنطقة القبائل موجود دائماً، منذ بدأ الإنسان يحاكي الطبيعة، وقد أُطلقت على الكتابات التي تناولت القصيدة الشعبية عدة تسميات، منها: أسْفَرُو، أشْويق، أحيحَا، ما يقابله بالعربية: "الزجل"، وأسْفَرُو مرادفة لكلمة شعر باللغة العربية، وهي مشتقة من فعل "يسْفَر" (yesefra)، وجمعه "إِسْفَر"، ومجموع "إِسْفَر" يكون "تَمْدِيَّاسْت".

وقد تأثر هذا النوع من الشعري منطقة القبائل بالنضال والكفاح المسلح منذ احتلال الجزائر من طرف الاستعمار الفرنسي، حيث وُصف الشاعر هذا الرافد الثقافي لخدمة أهداف المقاومة والنضال، متصدّياً للمشاريع الفرنسية في اتجاه فرنسة المنطقة أو في الحركة التمسحيية لمنطقة القبائل، وذلك ببث الأفكار التوعوية وتذكيرهم بأصولهم الدينية، وعمل على إيقاظ ضمائر الشعب وتجنيدده للدفاع عن قضيتته، فكان بذلك الشاعر بكلمته واقفاً إلى جانب من رفعوا السلاح إبان الثورات الشعبية، وسايروها عبر مختلف مراحلها منذ بداية الاحتلال.

ومن هذا المنطلق، ونظراً لمكانة الشعر لدى المجتمع القبائلي الذي تحتمت عليه الظروف الجبلية الصّعبة أن يستلهم منها ما يروح به عن نفسه ويوفر قوة تشحن عزيمته، عنوانها التحدي والانتصار على المستعمر، ارتأينا أن

نبرز الدور الذي لعبه هذا الشعر الشعبي الشفوي والذي أصبح اليوم مصدرا مكمّلا وموضّحا وحاملا لأحداث وأوضاع يمكن استغلالها لكتابة تاريخنا.

فجاءت مساهمتنا هذه الموسومة بـ "الشعر رافد من روافد المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في منطقة القبائل خلال القرن 19"، محاولة الإجابة والتقصّي في جوانب هذه الإشكالية المطروحة: كيف تصدّى الشعر لسياسة فرنسا لاستئصال الثقافة الجزائرية؟ وما هو الدور الذي لعبته أثناء كل تلك الفترة؟ وهل تفتنّ الباحث الجزائري لجعل هذا التراث من أولوياته، والاهتمام به لكتابة التاريخ؟ وما هي الأحداث التي تناولها الشعر القبائلي طيلة هذه الفترة؟ وما هي القضايا التي يحملها للحفاظ بهويته وثقافته، ويعبّر عن انشغالات مجتمعه؟

1. تعريف الشعر القبائلي

من عادة سكان القبائل أكان رجلاً أم امرأة أن يتغنّى بمختلف الأشعار من أشويق وأحيحا أذكار وأمدّاح الجوّال، فتري المرأة مثلاً تغني عند ترتيبها لبيتها، تغني عندما تهدد طفلها، تغني في عين الماء، تغني على اغتراب زوجها... فيكاد الشعر الغنائي يكون ملازماً لها في كل الظروف (القورصو، سعودي، 2016: 192)، أحيانا يعتمدون على الصوت فقط، وأحيانا يعتمدون على اللحن، وهو ما نجده في أشويق عند النساء وأحيحا. فالفرد في مثل هذه المجتمعات ذات التقليد الشفوي، يتّسم بتوقّد الذاكرة، إذ تعود منذ الصغر على ترويض ملكته الذهنية والاعتماد عليها بشكل خاص، وقد يبلغ درجةً عاليةً في الحفظ والتخزين يعجز عنها الفرد المثقف، هذا الذي يملك ذاكرة هشة بالاعتماد على المكتوب (4-3:1867, Hanotaux, poésies) فكانت الأشعار إحدى الوسائل التي يروح بها الشخص عن نفسه، وهو لا يدري أنه بصدد ترك رصيد تاريخي سنعتمد عليه في كشف جوانب عديدة من حياته وأوضاعه في الفترة التي تزامن ذلك الشعر، فتقول تاسعديت ياسين في هذا الصدد: "ينبثق الإلهام الشعري أو الإبداع الفني لدى الشاعر أو الأديب أو الرسام من المصادر الآتية (غيلاني، 2016: 37)، وأهمها: الطبيعة، الفضاء، الزمن، الرحلات، الحلم، الخيال والتجارب الإنسانية (ياسين، 2014: 1).

وقد تنوّعت وتعدّدت الأغنية القبائلية كتعدّد الأغنية الجزائرية بكل اللهجات، منها الشاوية، و الميزابية، والترقية... فارتبط ذلك الشعر بالمكونات الداخلية لشاعره، فرصدت لنا أفراح وأحزان الشعب وإخفاقاته وانتصاراته، بل وأصبح جريدة يومية تنقل لنا الأحداث بدقة، خاصة إذا تعلّق صاحبه بالرحلة وجاد الأمصار،

فيحمل لنا صورا رائعة بدون كاميرات، يريد أن يقول بها رغم الصعاب فقد رافقنا الكلام الموزون كالبندقية في وجه المستعمر الفرنسي، فكانت أغانيه ثورية جهادية تتغنى بالبطولات وترفع التحدي ضد السياسات الاستعمارية لكل ما هو جزائري من دين ولغة وعادات.

وبذلك فإن دراسة الشعر الأمازيغي الثوري سوف يمدنا بحقائق قلما تذكرها المصادر الأرشيفية، منها الحياة النفسية والحياة الهامشية التي لا يراها المستعمر الذي يسيطر على الأشياء الملموسة كالأرض...

و من هنا يمكننا دراسة الأبيات الشعرية دراسةً تاريخية، بل وما تمده من إضافة إلى تدوين التاريخ بغض النظر عن الرافضين لمثل هذا الشعر ورواجه، فيقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله في هذا الشأن: "...فإن دراسته تكشف عن كثير من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالقصيدة الشعبية من هذه الزاوية عبارة عن وثيقة هامة ندرس من خلالها الحياة كما صورها الشاعر... فالعودة إلى الشعر الشعبي ضرورة من ضرورات البحث" (سعد الله، 1989: 330) بينما يراها الأستاذ حداد أكثر من ذلك إذ يقول "بل ولا تُعتبر الشهادة هروباً من نقص الأرشيف ولكن كمكمل للمعلومات التاريخية الموجودة بأرشيف الإدارة الفرنسية" (Heddad, 2006: 2)

فجاء الشعر القبائلي في جوهره تعبيرا لأحاسيس الناس، فيرصد لنا حياتهم الاجتماعية وقيمهم الثقافية والأخلاقية والدينية، ويحملها لنا في قالب مشوق وبلغة قوية ذات دلالات عميقة في التراث الشعبي، تدل على أن صاحبها حكيم زمانه، ميزته لا يكرّر المعاني والألفاظ نفسها، حيث يقول هانوتو: "إني أعرف من القبائل من يمكنه رواية أشعار ليوم كامل من دون الوقوع في التكرار والتردد. وقد امتحنتهم... طلبت منهم إعادة أشعار... فلم أجد أبداً أي خلط أو تغيير...". (Hanotau, poésies, 1867: 5) وهو حال الشاعر سي محمد أومحمد الذي عاهد نفسه أن لا يلقي القصيدة نفسها مرتين، حيث يقول مولود معمري: "إن الأدب الشفوي هو الذي يخلق شاعراً عالمياً كسي محمد أومحمد." (Boulifa, Recueil, 1990: 45)

وما بحوزتنا من قصائد هذا النوع من الشعر الذي حاول العسكريون الفرنسيون الأوائل جمعه وعلى رأسهم هانوتو، إلا رصيда هاماً يمكن كتابة مجلدات عن تاريخ المنطقة في كل المجالات، وخاصة منها الاجتماعية والسياسية، ولكن ما لفت انتباهنا فيها، وقوف هذا الشعر مقاوماً للاستعمار في الجانب الثقافي، مشرحة السياسة الفرنسية لهدم معالم هذه الأمة من لغة ودين، بل ذهب هذا الشعر في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، فصور حالة الجزائريين الذين تحسّسوا والذين تخلّوا عن لغتهم ولعن الفرنسيين وقيادتهم.

فالأحداث الثقافية في ظل الاستعمار الفرنسي التي تناولتها القصائد الشعبية في القبائل متنوعة، وحتى تتمكن من فهم هذا التنوع ورصد أحداثه من فحواها، فقد صنفناها إلى: الجانب الثقافي الديني، والجانب الاجتماعي.

2. أهمية الشعر كمصدر شفوي لامادي

لم يكن الشاعر القبائلي أديباً، أو كان يتفنن في رسم لوائح شعره ليستعطف قلوب الناس، بقدر ما كان يلقي شعره بكل تلقائية، ويعيش يومياته المأساوية تحت نيران الاستعمار، فبصور إحساس ذويه وأقربائه، فيذكرهم بأحداث الماضي ليثبت فيهم النخوة، ويزرع فيهم الأمل، بل ويدفعهم إلى الجهاد والتضحية من أجل تحقيق حياة كريمة، وكسر أغلال ذل المستعمر، فكان بذلك لا ينتظر مالاً ولا شهرةً بقدر ما كان يذكر بني جلدته بالمأساة التي ألوا إليها تحت وبال الاستعمار الذي استهدف دينه وثقافته، وكسر قيم المجتمع، وجعله يعيش البؤس، وحول أمنهم إلى خوف ورعب وشقاء ودمار، (بن الشيخ ، 1983: 99) إلا أن هذا النوع من الشعراء هم الذين يحظون بمكانة في الأوساط، فهو سيد المجالس ورئيس التجمعات ويُرَّحَّب به أينما حلّ، ويُعامل معاملة الضيف المميّز (جلاوي، 2001: 5).

كما يرمي إلى إيضاح كل ما هو غامض، ويقول جون عمروش في ذلك "إن الشاعر القبائلي هو صاحب موهبة الشعر، أي جعل ما ليس واضحاً، بيّناً ومعقولاً... سواء كان أمداح أو أفراح... فهو يلعب دوراً اجتماعياً معتبراً، وله رسالة مهمة... فهو من بين ذلك بعيد الشدو، وصاحب بصيرة (Amrouche, 1988: 48-50). chants berberes).

تخطى الأعمال الفرنسية، وخاصة منها "الإثنوغرافية" مكانة كبيرة في الدراسات التاريخية الجزائرية، ليس لأنها تحتفظ على وثائق ذات قيمة تاريخية رغم المرامي التي وُجِّهت إليها ضمن السياسة الاستعمارية العامة، فهي تصبو أساساً إلى فهم والغوص في أعماق المجتمع بهدف الهيمنة والسيطرة، بعد دراسات تشريحية للمجتمعات، فهكذا ستكون هذه الدراسات قد قدّمت خدمة للجيش لتواصل مهمتها داخل المكاتب العربية.

ورغم مرامي هؤلاء العسكريين الدارسين لتاريخنا، فإنهم إلى جانب آخر، قدموا لنا خدمة كبيرة في الحفاظ على موروثنا اللامادي الثقافي الشفوي، حيث كان الشعراء - المعروفين والمجهولون - منهم يبدعون بشكل عفوي بعد كل حدث يعيشونه، فالضابط الإثنوغرافي، بهذا الفعل قد قام بدور الراعي والذئب في آن واحد، بحيث أراد

أن يُظهر مجتمعًا مغلوبًا عن أمره وخاضعًا لسلطة فرنسا، ومن جهة أخرى، ساهم في بعث العديد من النصوص الشعرية بلغتها الأصلية المحلية التي تحمل في طياتها أحداثًا وشهادات حيّة على المقاومة الجزائرية الشعبية؛ إذ أن المغزى الكلي لتلك الأشعار تلخصها المقولة القبائلية المشهورة "أَنْزَرْ وَلَا أَنْكُتْ"، بمعنى "أفضل لنا أن ننكسر على أن ننحني أبدًا".

فمجهودات هانوطو في جمع القصائد الشعرية القبائلية في الفترة الأولى من الاحتلال، كانت كلها تترصد لانكسار المستعمر بالدعوة للجهاد وتأجيج النفوس، خاصة بعد سقوط منطقة القبائل سنة 1857 تحت ويلات الاستعمار وأسر قائدتهم لالّا فاطمة التّسومر، وهو ما أظهرته جلّ الأشعار بالدعوة للتّمرّد والعصيان. كما قدّمت صورةً واضحةً عن أحوال المجتمع وارتباطه الوثيق لكل ما هو مقدس لديه، من دين ولغة وعرض وعادات وتقاليد وعرف.

تمثل هذه الأشعار التي بأيدينا وغيرها اليوم حقلا مهمّا للبحث فيه، ووثيقة ومادة في غاية الأهمية، كونها تساعدنا على فهم حاضرتنا من فهم ماضينا، وتمكننا من الوقوف عند ردود الفعل الجزائرية تجاه سياسة فرنسا لهدم معاول الثقافة.

3. نماذج من الشعر المقاوم للاستعمار الفرنسي

3.1. المقاومة الدينية واللغوية

لقد لعب الشعر القبائلي دورا إصلاحيا بل وتوعويا لما أُل إليه المجتمع من تمسيخ وتشيت، حيث يقول في ذلك الشاعر الحاج أعمر أولحاج التابع لعرش مشدالة: (Hanotau, poésies, 1867: 5)

لَبْرُوجُ زَيْنْدَ أَمِثْرَانِ الحِصُونُ فِي اسْتِدَارَةِ كَالْنَجُومِ

عَدَمَانْ إِمْوَلَانْ قَدْ غَادَرَهَا الْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ

يَكْشَمِثَانْ إِمْعَطْرَسْ وَحَلْ مَحْلَهُمُ الْكَافِرْ

دِينْ أَرْوَمِي إِقْقَوَانْ انْتَصِرْ الدِّينَ الْمَسِيحِي

سِيحْ أَيزْريوْ إِدَمْ نَسَّاسْ عيناى بالدم جودا

تحمل هذه الأبيات بعدا عن أثر الجانب الديني في احتلال مدينة الجزائر عامة وسقوط منطقة القبائل تحت الاحتلال سنة 1857 حيث كانت فرنسا تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية عموما خاصة بعد ان سنت قرار 7 ديسمبر 1830 القاضي بتحويل كل الأوقاف الى ملك الدولة الاستعمارية (بقطاش، 2007: 22) ، علاوة على توسيع دائرة الاستيطان ومصادرة الاراضي التي خلفت تردي في الأوضاع الاجتماعية ما جعل سنوات الستينات من القرن 19، سنوات للنكبات الطبيعية والانسانية التي انتشرت فيها المجاعات والأوبئة، فكان المناخ مناسباً للسلطات الاستعمارية لتفعيل تبشيرها الديني بمنطقة القبائل على يد الكاردينال لافيحري الذي لعب دورا بارزا في هذه المسألة (بقطاش، 2007: 105).

بينما عاد الشاعر قاسي نايت يحي من قرية عدني الى ما قامت به السلطات الفرنسية في معركة ايشريضن سنة 1857 بهدم كل الزوايا والأضرحة بالمنطقة قائلًا (Hanotaux, poésies, 1867: 129) :

أَيَقْجِيحْ ذِفْلَمْقَامَتْ كَمْ هدم من زوايا وأضرحة

سِيذِي عَلِي أَطَايَرْ نْتِيْزِي كسيدي علي أوثاير في ثيزي

أَمَلَاخْ يَرْئِيعِنْ صَلَاخْ ياحسرتاه على اربعين وليا

مِثْرَغِيظْ أَبُوزِيكي لما احترقت يا بوزيكي (جلاوي، 2001: 83)

بينما يضيف الشاعر علي اوفرحات (Hanotaux, poésies, 1867: 272) :

سِقْرُومَة أَرْ الْقِيْرَوَانْ من قرومة الى القيروان

كُلْ مَقَامْ هُذْنَسْ لَصَوَارْ تعرضت أصور الأضرحة للهدم

سِيذِي خَلِيلْ غَذْرَانْ لَمَانْ وغدرت طريقة سيدي خليل

خَلْطَانْ لَحَالْ ذَلْمَنْكَرْ وامتزج الحلال بالحرام

عَاسْ أَمَشْرَاغْ سِنَقَانْ وَأَضْحَى الْقَضَاءَ بِالشُّهُودِ

أَدِفْلَاكْ تَبَعَانْ سُرُورْ وشهادة الزور تدلى بالختم (Hanotaux, poésies, 1867:154)

إلا أن هذا الهدم أجج نفوس الأهالي مما دفعهم لحمل لواء المقاوم حيث يضيف الشاعر (Hanotaux, poésies, 1867: 129):

كَدَّةَ سُورَاوْ أَنْتَرْجَتْ عَظَمَ رَجَالِ ثَرْجَتْ

ذِلْطَارْ أَوْ بَرَانِي وَمَنْ وَفَدَ إِلَيْهَا مِنْ أَجَانِبِ

رُحْنَا سُنْدُ دُجْوَادُ عَفْتَعْمَ عَكَفَ الْأَبْطَالِ عَلَى الْجَانِبِ (الفخذ)

شَرَوَانْ زَنَادُ عَفْنِمَ وَقَرَّبُوا الزِنَادَ إِلَى الْحَاجِبِ

أَيْتَسَحْرَامَتْ دَسَحْلِيلِ مَعْبُتِينَ بِالزِنَادِ وَالْحَبِ

ولم يكتف بهدم الزوايا فحاول هدم المساجد أيضا، وخاصة أنه حاول قمع السكان الذين ابدوا تعاطفهم مع الزاوية الرحمانية الذين كانوا المحرضين الأوائل على الثورة، وفرض إجراءات تعسفية من حجر للأراضي وتغريم سكانها (بقطاش، 2007: 156) فكانت مهمة العسكريين والمبشرين تصفية المنطقة لكثافة سكانها وذلك بعد القضاء على الدين الإسلامي، فكانت طريقة الهدم واحدة منها حيث يقول الشاعر: (Hanotaux, poésies, 1867: 144):

لْجَامَعُ نَتُورِيرْ يَغْلِ مَسْجِدُ ثُورِيرْ تَهْدِمُ

وَيَنْ بِنَانْ إِتْرَكِيْنْ ذَلِكَ الَّذِي بَنَاهُ الْأَتْرَاكُ

يَرْتَسُ الزَيْنُ دَلْعَالِي بَهْدَسْتَهُ الْأَيْقَةُ

يَرَاتُ إِرْكَلُ دِذْغَاعَنْ مَعْمَارَهُ أَصْبَحَ رَكْمَةً حَجَرِ

إِوَاتُ لَحَزَنْ رَاسِي عَلَيْكَ بِالْحَدَادِ أَيْتَهَا النَّفْسِ

ذَسَدَاتْ إِهْدِثْنْ أضرحه الاولياء دمرهم

ولإتمام العمل التبشيري بالمنطقة راحت تزرع مراكز تعليمية تبشيرية في قرى القبائل من بني بني وجمعة نصاريح 1883، ووادي عيسي 1926، وخراطة 1895، وآث عباس سنة 1879، وبناء كنائس مثل كنيسة في قلب أراضي مشدالة (سعودي، 2017: 190) بعد مصادرتها بفعل قانون سيناتوس كونسولت لصالح انشاء مركز مايو الاستيطاني سنة 1886 (سعودي، 2017: 137-270)، كلها كانت ترمي إلى إبعاد الأهالي عن الدين الاسلامي، رغم أن هذه العملية لم ترق لنجاح كما كان يتوقعها لافيحري ومبشره، وما تحصلوا من نتائج إلا مع إدراجهم للأعمال الخيرية كالتعليم والتطبيب مع التركيز على فئة الأطفال لاستغلالهم مستقبلا، فالذين أقبلوا على التنصير فقدوا مكانتهم بين عائلاتهم ومجتمعهم (بقطاش، 19:156) وحتى من شعرائهم الذين ذمهم كثيرا في أشعارهم حيث يقول الشاعر ايدير اوبحمان التابع لقرية ثالة أنتزارث (Hanotaux, poésies, 1867: 219):

أَنْقَلِيلْ ذِدِينْ أصحاب ضعف الايمان والدين

كُلُو دَقْسَانْ يَصْفِيْفْ وأهل التلون في المواقف

دَلْمَدَهْبْ وَرْتَسَعِينْ لا مذهب لهم يتحلون به

يَزِدْ إِنْدَارْتْ سَرِيْفْ إبدأ بقريتهم من كل طرف

نَنْوَزُوْمْ سُرِّيَالِينْ يباعون بالريالات

نَثْنْ ذِلْعَاَزْ قَانْ أَسْقِيْفَمْعْ العار اشتروا نفس المصير (السقف)

ولم تكتف الادارة الفرنسية بتجريد الجزائريين من قيمهم ودينهم لتحارب لغتهم، وتغرس فيها لغتهم من خلال بناء المدارس وتدشينها هنا وهناك على أعالي جبال جرجرة، فأصبحت لغتهم تتداول بين الألسن وهو ما شد انتباه الشعراء لتوعية ما يحدث لهم من تغيير في سلوكياتهم وأحاديثهم حيث يقول (Hanotaux, poésies, 1867: 283-285):

أَسْمْ إِذْنُوْلَفْ بُنْصَوَاَزْ لما ابتكروا بنصوار

نُوعٌ ثِيَسَعَسَمَارْ تلقينا الضربة على الفك (ترجمة هانوطو ص 283)

نَزَوَ حَبَاسْ أَوْسَمَارْ وشعبنا من سجن المسمار

أَسْمِي إِدِينُولَفَ بُنْجُورْ لما ابتكر بنحور (صباح الخير)

نُوعٌ ثِيَتْ سَعْنُجُورْ تلقينا الضربة على الأنف

كُفَانْ فَلَاعْ جُورْ وانقطع علينا كل الأجر

أَسْمِي إِدِينُولَقِمَرْسَلْمَا ابتكر شكرا (مرس)

نُوعٌ ثِيَتْ غَرْثِيَرْسْ تلقينا الضربة على الحلق

ثِقَاعْ الهَيْبِيْخَسْ النعجة أحسن منا في الهيبة والحس

أَسْمِي إِدِينُولَقُكُوشُونْ لما ابتكر الكوشون (الخنزير)

يَقَاعْ الحَرَمَة وَقُجُونْ فاقنا الكلب في الحرمة

أَحْمَاسْ يُوْعْ أُسْرُدُونْ والحماس أضحى بالبعل الثمين

إِمِي إِدِينُولَفَ لَفْرِيَرْ لما ابتكر لفريير

نُوعٌ ثِيَتْ سَنَقَشِيرْثْ تلقينا الضربة على الركب

نُورُوحْ ذِلْعَارْ أَرْدِيَرْ وغرقنا في العار على الآخر

أَسْمِي إِدِينُولَقْدِيَابَلْ لما ابتكر لديابل (الشيطان)

نُوعٌ ثِيَتْ نَهْبَانْ تلقينا الضربة فأصبنا بالهبل

نُعَالْ ذِخْدَمَنْ نَزْبَلْ وأصبحنا جمالة الزبل

2.3. المقاومة الاجتماعية

طبقت فرنسا سياسة لتحطيم البنى التحتية للمجتمع الجزائري وطبقت سياسة مصادرة كلية للأراضي ما أنتج تدهورا في الحياة الاجتماعية للسكان، بل وأصبحت حياتهم علقما ما دفعهم الى الهجرة حيث يقول الشاعر الحاج أحمد أعمار أولحاج في ذلك: (Hanotaux, poésies, 1867: 2)

عَافَوْسُم دِيْقَاغُ أَفْرَسَانُ على يوم شهد مجيء النحاس
أَفْرَنْسِيْسُ يَقْوَانُ الفرنسي ذو البأس
يَحْشُدُ جَيُوشَ إِنْسَ كل ماله من أقوام جمعا
تُرْ هَاتْنُ عَزَزْنُ سِيْغِنَانُ والان سيهم بالرحيل
الْجَزَائِرُ تُشْبِيحُثُ نَكَّاسُ الجزائر البيضاء أغتصبت

ولم يكتف الجزائري بالهجرة حتى أنه أهين في كرامته ولن تبقى القيم السائدة في المجتمع القبائلي حيث يصور ذلك في قوله (Hanotaux, poésies, 1867:6)

نَكْ وَهْمَاغُ دُقْ مَلْعُرُورُ عجي من الدنيا ذات الغرور
خَرَيَانُ لُمُورُ انعكست فيها القيم والأمور
تَزْرَامُ أَمْدَانُ لُقِيَامُ عشنا يا ناس العجائب
فُكَانْدُ لَبْحُورُ تقيأت شيطان البحور
إِلْقَانُ يَفْرَانُ أَحْمَامُ فيلا تجيد حفر الغرين

ويضيف الحاج أعمار قائلا (Hanotaux, poésies, 1867:17)

سَخِيْدُ يَكْرَادُ عَفْ لَاصَلُ الفساد داهم الأصل
الدُّنْيَا أَتَبَدَّلُ الدنيا في تغير
أَعْنِ إِهْدُ وَيْنُ عَفْ ثُرْسُ يبدو أن قوائمها في خراب

نَقَرْدُ ذِ الصَّنْدَلِ اضحينا كقوم على ظهر سفينة
عَقْمَانُ أَمْبَلُ الرَّائِسِ بلا ريان وسط موج عباب

ولم يكتف الاستعمار بالتشريد والتهجير ، ففرض ضرائباً اضافية على السكان التي أثقلت كاهلهم وفي ذلك يقول قاسي نايت أويحي من قرية عديني: (Hanotau, poésies, 1867: 132)

غَافِثِينَ يَضْرَبَانِ ذِلْعَرْشَ ما حل بهذا العرش من محن
أَرْدُضْرِي ذِحْدَ عَقْنُكُنْ لم يحل بأحد غيرنا
مَنْفَكْ سَتِينْ سَتِينْ دفعنا ضريبة جائرة (قوامها ستون ستون)
لِبَاطَلْ سِيْذِي رَبِّ ذلك قدر الله علينا

ولم تكتف سياسة فرنسا هذه لتضع الشعب الجزائري مع كفة اليهودي، لما أصدرت قانون كريميو سنة 1870 لتحجيس اليهود، فأصبحت الأمور أكثر تعقيدا وازدادت الحالة الاجتماعية تدهورا بعدما أصبحت الجاليات الأوروبية هي التي تستغل الثروات الجزائرية، وهو ما تحمله هذه الأبيات من معاني ومغزى يضرب في أعماق السياسة الفرنسية (Hanotau, poésies, 1867: 16)

لِيَهُودُ يَزْقَدُ يَتْسَكَلْ اليهودي تولى زمام الأمور
لَا يَسْتَدُو سَسَهْلْ مشيته بالاحتيال والتكبر
مِثْقَرْدُ يَمْعَطْسْ فَمَنْذْ أَنْ مَهْدِ الطَّرِيقِ
لُقَايْدَيْنْسْ إِرْكَلْ انقادت خيرات البلاد للكافر
يَزْدَاغْ ثَمْدِينْتْ لَاحْسْ فسكن المدينة من غير قلق

وفعلا سارعت السلطات إلى سياسة مصادرة الأراضي واستغلال أحسنها وأجودها، ودفع الأهالي إلى استغلال المساحات الضيقة أو حتى الواقعة على أعالي الجبال التي تمتاز بقلّة جودتها وتواجد أحرّاش بها، أدى الى تدهور زراعتهم وثروتهم الحيوانية، فتراجعت محاصيل الإنتاج خاصة منها القمح، والتين والزيتون، خاصة وأن

الأوري جاء بفكرة انجاح زراعة الكروم واستبدال أشجار الزيتون بها مما أثر على المستوى المعيشي للأهالي وتدني قدرته.

هذه الوضعية أثرت في نفسية المجتمع الجزائري عامة والقبائلي خاصة حيث بلغ السيل الزبي عند الشاعر إلى أن تمنى الموت على أن يعيش في وضعية ضنكة قائلا: (Hanotaux, poésies, 1867: 17-18)

يَرْتَاحُ وَيَنْ غَابِنَ يَرْمَلُ سعيد من لقي حتفه وتقبر
لَحَبَّارُ أُرْشَسَانِ لا حس عليه ولا خبر
مَقَارَ يَتَهَنَّ يَطْسَنُ ارتاح وخلد لنوم أزلي
نَكْنِ أَمْرَوَائِلَ أصبحنا نمائل الدواب
دَرْبِيعَ أَقْوَدُ أَيْنَتَّاسُ نقتات على حشائش المزابيل

ونفس الإحساس نجده عند الشاعر معمر نسعيد التابع لقرية اعزوزن في عرش ايت يراثن إذ يصف انكسار وانهمزام الشرفاء أمام جبروت المستعمر وكأن جيله لم يسعفه الحظ لوجود فرنسا على رؤوسهم قائلا (Hanotaux, poésies, 1867: 124):

لَجِيلٍ أَقِ دَمْنَحُوسُ هذا الجيل مطبوع بالشؤم
عَاسِ إِلْحِيْفُ وَمُ إِقْحَذَارُ عايش الغبن والعويل
أَقَالَانِ سَقَاتُ لَعَرَاضُ منهم رجال عظام
مُكَلُّو يُوْدَارُ إِيْوَالْنِيسُ إنذلوا وعاشوا الازدراء
إِيَوْمُ تَغْزِرُ لَعَمَارُ فلما العمر الطويل

الخاتمة:

وما يمكن استخلاصه من هذا البحث، أن كل تلك الأشعار المذكورة ماهي الا نزر قليل من ثقافة شعبية عميقة تركز أساسا على الكلمة النافذة للتخاطب، وما المرحلة المحددة الا لإظهار هذه الوسيلة أنها كانت

الرصاصية الثانية في وجه المستعمر بعد المقاومة الشعبية، فكانت حقاً المرأة العاكسة لأوضاع المجتمع القبائلي الذي عانى ولايات المستعمر فيما يخص مقوماته الدينية واللغوية والاجتماعية بتهديم أواصر العلاقات الاجتماعية المبنية على الاتحاد بتمزيق وتشيت العروش والقبائل بعد مصادرة أراضيها، فكان الشعر الوسيلة لرفع الهمم، والتنبيه بدسائس المستعمر وسياسته الاستتصالية لكل ما يرمز بثقافة هذا المجتمع، وفي شعر مقاوم لسياسات الاستتصال والفرنسة والتغريب، متمسكا بأصالته ودينه وأرضه، ومثل شعر شعراءنا شعبهم أصدق تمثيل، ورغم المصائب وهول سياسات الاستعمار فذلك لم يزداهم إلا توحيدا وإيمانا (سعودي، 2021، 500) بقضايه العادلة.

الببليوغرافيا:

باللغة العربية

المراجع (كتب ومقالات):

1. بقطاش خ. (2007). الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، منشورات دحلب.
2. بن الشيخ التلي (1983). دور الشعر العربي الجزائري في الثورة 1830-1945، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
3. جلاوي أ. (2001). أشعار شعبية من قبائل جرجرة قراءة نقدية في كتاب هانوظو، منشورات زرياب.
4. سعد الله أ. ق. (1989). تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
5. سعودي ي. (2016-2017). النظام الإداري والاستيطاني في وادي الساحل: "بلدية مايو Maillot المختلطة نموذجاً من 1882 إلى 1954"، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر2 ابو القاسم سعد الله.
6. سعودي ي. (2021). ثقافة المقاومة للاستعمار الفرنسي والإصلاح في الشعر القبائلي خلال القرن التاسع عشر "شعراء مشدالة نموذجاً"، مجلة عصور الجديدة، العدد 1، المجلد 11، ص 482-502.
7. غيلاني س. (2016). "الأغنية الشعبية الثورية الأوراسية مصدراً شفهيًا مكملًا لأحداث الثورة التحرير 1954-1962"، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 24، السنة الثامنة، ص 37.
8. القورصو م. وسعودي ي. وبن ناجي ج. (2016). الجزائريات أثناء حرب التحرير الوطنية مواقف ومسايرات 1954-1962، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، الآمال للطباعة والنشر والتوزيع.
9. ياسين ت. و سعدوني ر. (2014). "أشعار سي محمد أومحمد الثائر الجوال"، دنيا الوطن. Pulpit.alwatanvoice.com/articles، تاريخ الزيارة 15 فيفري 2021.

باللغة الأجنبية:

Les études (livres et articles)

1. Amrouche J. (1988). *Chants berbères de Kabylie*, préface de M. Mammeri, Ed l'Harmattan.
2. Hanotaux, (1867). *Poésies populaires de la Kabylie du Djurdjura, texte kabyle et traduction*, Challamel, Paris, éditeur commissionnaire, Bastide.